مجلة الإحياء، المجلد: 23، العدد: 32، جانفي 2023، ص - ص: 457 – 466
الترقيم الدولي: 4350-1112 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2406-2588

التعصب المذهبي وأثره على طالب العلوم الإسلامية

Sectarian fanaticism and its impact on students of Islamic sciences

طالب دكتوراه مولاي زيان
كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية - جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان
مخبر الدراسات الشرعية
moulayzeyyan@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022/10/15 تاريخ القبول: 2022/12/26

الملخص:
تهدف هذه الدراسة إلى بيان خطورة التعصب المذهبي وأثره على طالب العلوم الإسلامية ؛حيث يعتبر التعصب المذهبي أحد التحديات و العوائق التي تؤثر على المسار التكويني والدّعوي لطالب العلوم الإسلامية، فجاءت هذه الدّراسة تبصيرا لطالب العلوم الإسلامية بخطورة التّعصّب المذهبي والآثار المترتّبة عنه وتوضيحا للتدابير الواقية منه قصد اتباع المنهج القويم ونجاح العملية الدعوية والتّبليغية، وقد سعت الدّراسة إلى محاولة التوصّل إلى الهدف الرّئيس الذي يركّز على مدى انتشار ظاهرة التّعصب المذهبي بين طلاب العلوم الإسلامية، والآثار المترتبة على ذلك، إضافة إلى التعرّف على أهم التدابير الوقائية من الظاهرة، والتي ترتكز على جانبين: الجانب العلمي والجانب التّربوي وكلاهما لهما دور في التّحصيل العلمي والمسار العملي والدعوي.
الكلمات المفتاحية: التعصب؛ المذهبي؛ أثر؛ العلوم؛ الإسلامية.

Abstract:

This study tends to show the danger of sectarian fanaticism and its impact on the student of Islamic sciences, as sectarian fanaticism is one of the challenges and obstacles that affect the formative and advocacy path of the student of Islamic sciences. This study came as an insight to the student of Islamic sciences about the dangers of sectarian fanaticism and its consequences, and an explanation of the protective measures against it in order to follow the right approach and the success of the advocacy and reporting process. The study sought to reach the main goal, which focuses on the extent of the spread of the phenomenon of sectarian fanaticism among students of Islamic sciences, and its implications, in addition to identifying the most important preventive measures against the phenomenon, which are based on two aspects: the scientific side and the educational side, both of which have a role in educational attainment and the practical and advocacy path.
Key words: Fanaticism; sectarian; impact; Sciences; Islamic.

مقدّمة:

التّعصّب من أكبر الآفات التي ضربت المجتمع الإسلامي، وأصبحت فتنته من أخطر الفتن في العصر الحديث، كيف لا وقد دخل جل مجالات الحياة واتّصفت به معظم الفئات؛ وبالخصوص طلاب العلوم الإسلامية حيث أصبح التعصب المذهبي عندهم أساسا لكثير من الآراء؛ فلا يكاد يرى المتعصب إلا رأيه وأي مخالف له مفتون مغبون جاهل لا يعتد بقوله، لذلك يعتبر التعصب المذهبي أحد التحديات والعوائق

التي تؤثر على المسار التكويني والدعوي لطالب العلوم الإسلامية، ولأهمّية الموضوع جعلته محلا لهذه الدراسة الموسومة بعنوان: **التّعصّب المذهبي وأثره على طالب العلوم الإسلامية**. وتخصيصه بطالب العلوم الإسلامية لأنّه المقصود بالدعوية والتّبليغ عن الله ورسوله، فيكون بذلك على بصيرة بخطورة التعصب المذهبي والآثار المترتبة عنه عالما بالتدابير الواقية منه قصد إتباع المنهج القويم ونجاح العملية الدعوية، لذلك حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية الإجابة على الإشكالية الآتية: **ما مدى تأثير التّعصّب المذهبي على المسار التكويني والدعوي لطالب العلوم الإسلامية؟ وماهي التدابير الوقائية للحد منه؟**

وقد سعت هذه الدّراسة للوصول إلى الهدف الرّئيس الذي يركّز على مدى انتشار ظاهرة التّعصّب المذهبي بين طلاب العلوم الإسلامية، والآثار المترتبة على ذلك، إضافة إلى التعرف على أهم التدابير للتقليل من الظاهرة.

وقد سلكت في هذه الدراسة المنهج الوصفي والمنهج التحليلي والمنهج الاستنباطي نظرا لطبيعة البحث.

هيكل البحث:

مقدمة: تحتوي على أهمية الموضوع وإشكاليته وأهم أهدافه مع ذكر المنهج المتبع.

المبحث الأول: عني ببيان حقيقة التّعصّب المذهبي ـ الأسباب ـ الأنواع ـ أثره على طالب العلوم الإسلامية.

المبحث الثاني: خصصته لذكر التدابير الواقية للتقليل من آثار التّعصّب المذهبي.

خاتمة: تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها، مع تقديم مقترحات متعلقة بالموضوع.

المبحث الأول: حقيقة التّعصّب المذهبي ـ الأسباب ـ الأنواع ـ أثره على طالب العلوم الإسلامية

المطلب الأول: حقيقة التّعصّب المذهبي

التعصّب المذهبي آفة من آفات بعض المتديّنين وعلامة من علامات التّطرّف والتشدّد الذي ضرب أفكار وسلوكيات بعض الشباب، وإذا كان التّعصّب كلّه بغيضاً فهو أبغض ما يكون عندما يقع فيه البعض باسم الدّين أو يتمسح فيه البعض الآخر بفقيه عظيم من الفقهاء الذين خدموا الدّين والدّنيا على مدى تاريخنا الطويل.

إن أخطاء التّعصّب المذهبي لا تقف عند الإساءة إلى فقهائنا الكبار، أو تضييق الحكم الشرعي الذي وسعه الخالق على خلقه؛ بل تتعدى هذا إلى بذر بذور الشقاق والتشاحن بين بعض العامّة والطّلبة، وحتى مع بعض العلماء أيضا.

فنتعجّب من بعض المتعصّبين للمذاهب، سواء من الشباب الذين كَلّفوا أنفسهم ما لا يطيقون أو بعض الفقهاء الذين شغلوا الناس بما لا يعنيهم، لذلك فالنص والحكم الشرعي مسؤولية المجتهد العالم وتطبيق التديّن هو المطلوب من عامة المؤمنين، **فماذا يقصد بالتعصب المذهبي، وماهي أسبابه وأنواعه؟ أولا: التّعصّب لغة**: يأتي بمعنى الشدّة ومنه قولهم: هذا يوم عصيب أي شديد؛ ويأتي بمعنى التجمع والإحاطة والنصرة ومنه قولهم عصبة الرجل والعصبة: الجماعة، والتعصب من العصبية؛ وهي: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبيته؛ فالمتعصب هو الذي يغضب لعصبته ويحامي عنهم[1].

ثانيا: التّعصّب اصطلاحا: له نفس المعنى اللغوي، فهو التشدّد للجماعة التي يكون فيها، وعدم قبول المخالف وعدم اتباعه فيما يقول ولو كان على صواب، وكذا نصرة قومه وجماعته ظالمين أو مظلومين.

ثالثا: المذهبي: نسبة للمذهب، وهو في اللغة مصدر ميمي من ذهب وهو الطريقة والمسلك ومحل الذهاب والأصل[2].

ومنه فإن تعريف التعصب المذهبي كما ورد في معجم لغة الفقهاء، هو: شدّة التمسك بالمذهب الفقهي، ونصرة اجتهاداته في كل ميدان[3].

ومنه يكون التّعصّب المذهبي هو التّشدّد والتّطرّف في دائرة أفراد المذهب ونصرته كيف ما كان. ولا يقتصر التّعصّب على المسائل الفقهية؛ بل يشمل كل ما يكون داخل المذهب من أراء عقدية وغيرها.

ويرى الباحث أن التّعصبَ: هو دفاعٌ عن المذهبِ، مع هوىً، أيْ: أن المتمذهبَ سيدافعُ عن مذهبِه، بغضِّ النظرِ أكانَ الصَوابُ معه، أم لا واعتقاد خطأ كل ما خالفَ المذهبَ؛ لمجرَّدِ المخالفةِ، دونَ اعتبارٍ للنظرِ في الأدلةِ، مع ما يَتْبَعُ ذلك مِنْ رَدِّ الصوابِ، وعدم قبوله.

وهذا لا يعني أن العصبيّة مذمومة كلها؛ فليس عيبا أن يتعصّب المرء لدينه ومذهبه بأن يخدمه ويعتني به ويسهر على نشره وتوسعه، يقول علي رضي الله عنه: "إن كان لا بد من العصبية، فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور"[4].

المطلب الثاني: الملامح العامة للتعصب المذهبي

لقد أصبح التّعصب المذهبي له حضور كبير في ذهنية الفرد المسلم لاسيما لدى طالب العلوم الإسلامية في وقتنا الراهن، ولا يمكن إنكاره بحال من الأحوال مع وجود آثاره، فقد تمّ رصد وجوده تبعا لحضور آثاره على الواقع، ومن الملامح العامة التي تؤكد وجوده نذكر:

- نفور بعض الطلبة من محاضرات بعض المشايخ، وربّما تجريحهم والتحذير منهم، وهذا شاهدناه في مراحل الطلب. ولا يزال حتى اليوم نسأل الله العافية.
- الاعتكاف على كتب معيّنة والسّماع لمشايخ معيّنين بدعوى التزكية، وهذا ما يعرف بالولاء والبراء.
- تجريح الطلبة لبعضهم، بكونهم يحضرون محاضرات ودروسا لأساتذتهم.
- انتشار التباغض والتشاحن التي قد تصل إلى درجة استئصال الطرف لآخر
- ظهور الفوضى في الفتوى وغياب المرجعية الدينية.
- انتشار ظاهرة الجدال والمِراء إبرازا للغلبة دون قصد الوصول إلى الحق.
- احتواء بعض المؤلفات المذهبية على الإنقاص من الآراء المخالفة قصد تشويه الطرف الآخر، والانشغال بالانتصارات المذهبية.
- توسّع ظاهرة الغلو والتّطرّف الديني.

وقد لخّصها الشيخ شلتوت فقال: "المتأخرون حينما تحكمت فيهم روح الخلاف وملكَتهُم المذهبية، راحوا يضعون من القوانين ما يمنع الناس من الخروج عن مذاهبهم، وانتقلت المذاهب بهذا الوضع عن أن تكون أفهاما يصح أن تناقش فترد أو تقبل، إلى الزامات دينية لا يجوز لمن نشأ فيها أن يخالفها أو يعتنق غيرها؛ وحُرموا بذلك النظر في كتاب الله وسنة نبيّه أو حرموا العمل بثمرة النظر فيهما"[5].

المطلب الثالث: أسباب التّعصّب المذهبي

إن التعرف على عوامل وأسباب انتشار وتفشي ظاهرة التّعصّب المذهبي خاصة في الوسط الجامعي بين طلبة العلوم الإسلامية يساهم كثيرا في وضع حلول لهذه الظاهرة التي أصبحت أكثر اشتدادا وانتشارا مما سبق، فماهي الأسباب التي أدت وساعدت في انتشار هذه الظاهرة:

إنّ أهم أسباب التّعصّب المذهبي تتمحور في:

- الجهل والأمية : فالجهل بالآخر وعدم توسيع المدارك بمعرفته والاطلاع على ما يؤمن به، يدعو الفرد إلى التعصب ضده ورفضه، فطالب الشريعة الذي لا يطلع على الآراء والمذاهب الأخرى ينتُج لديه

لون من التّديّن فيه الكثير من مظاهر السطحية والخرافة، ولا شك أن هذا انحراف في فهم الدّين يقول الغزالي واصفا هؤلاء: "رأيت ناسا تغلب عليهم البداوة أو البدائية، يكرهون المكتشفات العلمية الحديثة، ولا يحسنون الانتفاع بها في دعم الرسالة الإسلامية وحمايتها...وهؤلاء في الحقيقة لا سلف ولا خلف، وأدمغتهم تحتاج إلى تشكيل جديد"[6]، ولذلك فإن التهجمات على الإسلام من طرف الغرب هو بسبب الجهل بمبادئه وعدم معرفته على الحقيقة.

ـ اتباع الهوى: فالهوى يوقع صاحبه في الإعراض عن منهج الله لأجل إشباع غريزة الهوى في نفسه الأمارة بالسوء؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ (يوسف: 53)، والعاقل من كبح هواه ولم يسمح لشهواته أن تتسلط عليه، ثم إنّ الذي يتعصّب لمذهب معيّن يكون قد اتّبع هواه، يقول ابن تيمية:" أما إذا قدر على الاجتهاد التام الذي يعتقد معه أن القول الآخر ليس معه ما يدفع به النص، فهذا يجب عليه إتّباع النّصوص إن لم يفعل كان متّبعا للظّن وما تهوى الأنفس وكان من أكبر العصاة لله ولرسوله"[7].

ـ تقليد وتقديس الشّخصيات الدينية داخل المذهب والغلو فيهم: فإبطال العقل والتدبر والاقتصار على التقليد هروبا من كُلفة النّظر والاستدلال يؤدي إلى التّعصب، وهذا مآله الطعن في نصوص الكتاب والسنة بدون حق لأجل التمسك بمذهب معيّن واتباع لعادة آبائه و أجداده وبلده؛ وهذا من عمل الجاهلية[8].؛فلا ينبغي أن يتحوّل تراث العلماء إلى وحي مقدس ولا ينبغي أن تؤول مناهجهم إلى ثوابت لا يمكن تخطّيها وتجاوزها؛ وعندئذ لا يتصوّر مجال للغلط في أفكارهم وفتاواهم، وهو ما يؤدي إلى نشوء تقليد من دون دراية ؛والذي من أبرز سماته التّعصب، على خلاف التقليد الذي يكون على بصيرة فهذا من التقليد الممدوح.

ـ دعوى أن كل مجتهد مصيب: من أهم أسباب التّعصّب المذهبي هذه الدعوى، وقد أنكرها الإمام ابن عبد البر؛ حيث عنون في كتابه جامع بيان العلم وفضله: "باب ذكر الدليل من أقاويل السلف على أن الاختلاف خطأ وصواب يلزم طالب الحجة عنده وذكر بعض ما خطّأ فيه بعضهم بعضا وأنكره بعضهم على بعض عند اختلافهم"[9]. ومما ينبغي ذكره في هذا المقام والتنبيه عليه أنّ المجتهد المصيب مأجور في اجتهاده وصوابه، والمجتهد المخطئ مأجور على اجتهاده معفوّ عنه خطئُه.

ـ غياب الأخلاق في التعامل مع الآخر المخالف: لأنّ انعدام الأخلاق يشجّع على العصبيّة ويعزّز وجودها؛ وهذا راجع إلى طبيعة النشأة الاجتماعية والتربية الدّينية؛ فالطفل المسلم عندما يترعرع في بيئة لقّن فيها الحقد والكراهية والتطرف ضد المخالف، فمؤكد أن يصبح ما تلقنه حقيقة جزمية في وعيه، وهذا ما نراه في دنيا الناس اليوم؛ حيث أن الطفل الذي ينتمي إلى أسرة تعتنق مذهب ما، تجدها تغرس فيه حب هذا الانتماء وكراهية الانتماءات الأخرى إلى درجة الحقد والتعصب.

ـ الفهم الخاطئ للدّين ولمقوّماته الأساسيّة: فالفهم الذي لا يكون وفق ضوابط علمية ولا ضِمْن حدود موضوعية وإن كان مع حسن نية، قد يوسّع في دائرة التّعصب وحدودها.

ـ أسباب سياسية: لا شك أن العمل السياسي له تأثير مباشر في نشوء التعصّب وشيوعه، وفي خلق التمايز الديني في المجتمعات، ويؤكد ذلك ظهور الفرق والمذاهب الدينية في المجتمع الإسلامي، ولا شك أن طلاب الشريعة قد أخذوا نصيبهم من هذا التأثير خاصة بعدما يُسيّس الدين وتُسيّس الانتماءات المذهبية وتوظف المشاعر الطائفية وراء مقصد نصر الدّين وإظهار الوطنية.

ـ الشعور بالاضطهاد والظلم والاستبداد: فغياب العدالة والإنصاف يشكل عناصر وجود التّعصّب خصوصا إذا كان على حساب المذهبية.

ـ مناقشة الاختلافات الفقهية بين المذاهب في فضاءات مفتوحة: وهذا من أجل تهييج العواطف قصد الانتصار للمذهب، والأصل أن تبقى بعيدة عن العامة والغوغاء.

المطلب الرابع: أنواع التعصب المذهبي

لقد تعددت أنواع التعصب للمذهب فمنها:

1ـ ما يظهر فيه تفضيل بعض الأئمة على بعض: قال ابن تيمية: "أما ترجيح بعض الأئمة والمشايخ على بعض، مثل من يرجّح إمامه الذي تفقّه على مذهبه أو يرجح شيخه الذي اقتدى به على غيره، كمن يرجح الشيخ عبد القادر أو الشيخ أبا حنيفة أو أحمد أو غيرهم، فهذا الباب أكثر الناس يتكلمون فيه بالظن وما تهوى الأنفس، فإنهم لا يعلمون حقيقة مراتب الأئمة والمشايخ ولا يقصدون اتباع الحق المطلق بل كل إنسان تهوى نفسه أن يرجّح متبوعه وإن لم يكن معه برهان على ذلك، وقد يفضي ذلك إلى تحاجهم وقتالهم وتفرقهم وهذا مما حرم الله ورسوله"[10].

2ـ ما يظهر تفاضل المذاهب الأربعة: تعتبر المذاهب الأربعة مدارس فقهية معتبرة، وهي بمثابة طرق لمعرفة أحكام الشريعة، ولا ريب أن يتواجد فيها الصواب والخطأ، باعتبار أن العصمة لله ورسوله، وهذا لا ينقص من قيمة المذاهب ولا من أربابها؛ لأن اختلاف المذاهب نعمة كبيرة وفضيلة جسيمة خصت بها هذه الأمة[11].

3ـ ما يدعو إلى تقليد مذهب منها دون غيره: إن إلزام المسلمين باتّباع مذهب معيّن هي دعوى يردّها الواقع الذي عاش فيه الصحابة رضوان الله عليهم؛ حيث لم يرِد عنهم أنهم ألزموا الناس على اتّباع آرائهم وفتاويهم تيسيرا على الناس ورفعا للحرج عنهم، يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:" إذ لا واجب إلا ما أوجبه اللَّه ورسوله، ولم يوجب اللَّه ولا رسوله على أحد من الناس أن يتمذهب بمذهب رجل من الأمة فيقلده دينه دون غيره، وقد انطوت القرون الفاضلة مبرأة أهلها من هذه النسبة"[12].

المطلب الخامس: آثار التعصب المذهبي على طالب العلوم الإسلامية

يعدّ التّعصّب المذهبي أحد أبرز الآثار السلبيّة النّاتجة عن التمذهب، ويترتّب على هذا الّتعصّب مجموعة من الآثار نبيّنها كالتالي:

ـ التَّنافُس بين تلاميذ المذاهب، والذي دفعَهم إلى التباغض، والتشاحن، والتّراث الإسلامي شاهدٌ على ذلك من خلال الرّدود التي كانت بينهم، سواء في الكتب أو المناظرات.

ـ نشأة التَّلفيق لدى طالب العلوم الإسلامية، وبذلك ينشأ التَّهاون، وارتكابُ كثيرٍ من المُخالَفات، وذلك بتتبُّع الأقوال التي تُناسب هواه، ولو كان الاحتكامُ إلى الأدلة لَمَا وُجِد هذا، وهذا يعتبر عيب في المنهج العلمي لدى الطالب.

ـ تعظيم الأئمَّة إلى الحدِّ الذي يرفعهم إلى نِسْبة العصمة لهم، وعدم جواز الخطأ عليهم، فيكون حصر الحق فقط فيما يصدر عن المذهب المتّبع دون النظر لما عند المذاهب الأخرى من آراء قد تكون سليمة، فقد روي عن أبي الحسن عبيد الله الكرخي الفقيه الحنفي قوله: "الأصل أن كل آية تخالف أصحابنا فإنها تحمل على النسخ، أو على الترجيح، والأولى أن تحمل على التأويل من جهة التوفيق"[13]. وذكر القاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك (باب، ترجيح مذهب مالك، والحجة في وجوب تقليده على غيره من الأئمة)[14]. وغيرها من الشواهد التي تدل على الإفراط في تعظيم الأئمة وأرباب المذاهب.

ـ نشوء ضعف الوازع الدِّيني؛ وذلك بأنَّ المكلَّف إذا وعظ بالآية وعلِم أنَّ هذا كلام الله، أو ذَكَّر بالحديث وعلم أنَّ هذا كلام رسول الله كان لهذا شأنٌ عنده، بعكس ما لو قيل له: هذا رأي الإمام فلان، أو الإمام

فلان، وبذلك نشَأ عند كثيرٍ من المسلمين ضَعْفُ الوازع الدِّيني، وقد انتقد ابن عبد البر هذا الأمر وساق قول منذر بن سعيد وهو ينتقد التعصب المذهبي:

عذيري من قوم يقولون كلّما طلبتَ دليلا هكذا قال مالك
وإن قلت قال الله ضجّوا وأكثروا وقالوا جميعا أنت قرن مماحك
وإن قلت قد قال الرسول فقولهم أتت مالكا في ترك ذاك المسالك[15].

وهذا يؤثر سلبا على الجانب الدعوي لطالب العلوم الإسلامية.

ـ عدم المبالاة وإهمال كل ما تفقّه به الآخرين من المذاهب، وهذا يطعن في موضوعية الباحث وشروط البحث القائم على المنهج العلمي، فطالب الشريعة ينبغي أن يكون على دراية بما حوله من الآراء الفقهية محترما كل الأقوال مستفيدا منها في مشواره العلمي والدعوي.

وهذه الآثار وغيرها تؤدي إلى نتائج وخيمة؛ حيث كانت سببا للّتفرقة بين المسلمين وفي هذا ضعف وعجز للأمة، وساهمت في نشر الجهل بين الناس والبعد عن الحق؛ فأصبح الناس في حيرة مشتّتين لكثرة الآراء والتمسك بها.

المبحث الثاني: التدابير الواقية للتقليل من آثار التعصب المذهبي

بعد ذكرنا النقاط التي تثير التعصب نحاول ذكر التدابير التي تقلل وتحدّ من ظاهرة التعصب وتحقق التعايش. وهي على قسمين: تدابير تعلقت بالمنهج العلمي الذي ينبغي أن يسلكه طالب العلوم الإسلامية؛ وأخرى تتعلق بالمنهج التربوي الأخلاقي لطالب الشريعة.

المطلب الأول: التدابير المتعلقة بالمنهج التربوي

ـ ترك المراء والجدل: فقد قال الله تعالى لنبيّه: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾ (الكهف: 22)، أي لا تجادل فيهم إلا بما أوحينا إليك[16].فمن الأمور التي تقي من التّعصب وتقطع دابره ترك المراء والجدال، والمراد بالمراء هو: "الطعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه قصد التحقير والاستهزاء[17]. فطالب الشريعة عليه أن يبتعد عن هذه التصرفات لأنه في غنى عنها، وأن يركز على الطلب والتحصيل العلمي.

ـ المناصحة والإرشاد: فعلى الفقيه والمفتي أو العالَم أن ينصح السائل سواء كان طالب علم أو عامّيا ويفتي له بالصواب ولو كان على خلاف مذهبه خاصة إن علم أن مذهب غيره أرجح من مذهبه؛ لأن هذا يغرس في طالب الشريعة منهج الاعتدال والوسطية ويبعده عن التطرف والتعصب.

ـ الحوار: فالحوار يقرب المفاهيم، إذ له أهمية كبيرة في الإقناع وتبادل الرأي، من أجل الوصول إلى الحقيقة، لذلك يعدّ الحوار الهادف المنضبط من أنجح الوسائل في تخليص الفرد من داء التّعصّب لاسيما طلاب الشريعة؛ فهم بحاجة لجلسات مستديرة مع مشايخهم وإن كانوا يحملون رأيا مخالفا أو فكرة مناقضة، وذلك من أجل تنوير عقولهم وشحن هِممهم وتوسيع نظرهم الفكري والوجداني.

ـ العمل على نشر التسامح وثقافة اليسر والتعايش: لا شك أن التسامح الديني طريق للتعايش؛ فالمسلم يكون متساهلا ليّنا مع الآخرين، نابذا للعنف والخشونة والغلظة، وقد وجد من الموروث الروائي ما يشير إلى هذا النوع من التسامح "اختلاف أمتي رحمة"[18]، فالتسامح أحد عوامل التآلف وهي خصلة كانت بارزة في سلوك النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وآل بيته رضوان الله عليهم أجمعين، بل إن الشريعة موصوفة بالسمحة ففي الحديث الشريف "إنما بعثت بالحنيفية السمحة"[19]، فلا بد لطالب الشريعة أن يتصف بهذه الصفة، فالأصل التيسير والرفق والعفو والقول الحسن وغيرها.

وتتمثل المرتبة العليا من التسامح في العدل مع الطّرف الآخر؛ لأن العدالة هي التي تقود إلى تجاوز الأنانيّات والعصبيّات التي تُفضي إلى التعسّف والظلم، ليبقى التسامح هو الذي يرسي معالم التعايش والقبول بالآخر؛ وجودا وقناعات وآراء، وبهذا يقوى النسيج الداخلي للمجتمع الإسلامي.

ـ التّربية على احترام العلماء وتقديرهم: فتربية النشء على احترام العلماء وعدم الوقوف على زلاتهم أهم الطرق لمعالجة التعصب المذهبي باستخدام أحسن الوسائل وأفضل الأساليب[20]. قال النووي رحمه الله: "وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشيء، وقال: اللهم استر عيب معلمي عني ولا تذهب بركة علمه مني"[21]، لذلك نجد كثيرا من الأدب بين العلماء رغم اختلاف الكبير بينهم في المسائل الفقهية كما هو معروف بين أبي حنيفة ومالك رحمهما الله تعالى[22]، فالعلماء الحقيقيون لا يتعصّبون، بل هم مثالا للاعتدال والانفتاح والأدب، فعلى طالب الشريعة أن يحذو حذوهم وأن يشرب من مشربهم.

ـ الرجوع إلى الحقّ: فينبغي لطالب الشريعة أن يميل حيث مال الحق، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "فإن الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل"[23]، ويقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: "إذا عُرف مقصود الشريعة سلك في حصوله أوصل الطرق إليه"[24]، فهذا هو المنهج العلمي الذي يسلكه طالب الشريعة قصد الوصول إلى الحق؛ لأن الحق أحق أن يتبع وأحق أن يقال.

المطلب الثاني: التدابير المتعلقة بالمنهج العلمي

ـ بيان سعة الفقه وأن الإسلام يسع الجميع: وذلك أن الشريعة صالحة لكل زمان ومكان؛ فهي رسالة إلى البشرية كلها؛ لذا وجب أن تتصف بالمرونة حتى تسع الناس على اختلاف حاجاتهم؛ وما اختلاف الفقهاء إلا مؤشر على سماحة الشريعة وسعتها، لذلك كان مسار الفقه طويل وشامل لجميع الوقائع والنوازل مما يحتّم على طالب العلوم الشرعية تصفية الفهم والعقل من شوائب التّعصّب[25]؛ وأن يعلم أن اختلاف المذاهب الفقهية من حكمة الله تعالى[26]؛ وبهذا يظهر أن الشريعة فيها كل مقومات العموم المكاني والزمانيّ التي تنبذ التعصّب المذهبي بجميع صوره.

ـ إتّباع المنهج الوسط: من المعلوم أن الوسطية والاعتدال هو سمة الشريعة السمحة؛ لأن الدّين ميسر غير معقد؛ نقي من العصبية والمذهبية، فمن التزم بهذا المنهج فقد حقق السلامة من التّعصب والانحراف سواء كان في المسائل الفقهية أو العقدية. ومن ميزات هذا المنهج مراعاة أحوال الناس وعاداتهم وقدراتهم شرط موافقته للشرع والعقل. وهذا لا يفوت على طالب الشريعة إدراكه.

التلقي عن أهل العلم: قال الله تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (الأنبياء:7) ويقابله التلقي عن أهل الجهل والأهواء والبدع، لذلك طالب العلوم الشرعية ينبغي أن يبتعد عن الذوق والعاطفة والوجدان في مرحلة التلقي، وإلا أصبح أسيرا لهواه متعصّبا لأراء مشايخه.

ـ الإخلاص في طلب العلم الشرعي: فعلى طالب العلوم الإسلامية استحضار المقام التعبدي في طلب العلم الشرعي، وأن يكون أهلا لهذه الأمانة الثقيلة حتى يستنير بنور الله لأن العلم نور، ونور الله لا يهدى لعاصي، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ (البقرة:282)، إضافة على ذلك عليه بالصبر والمصابرة وعدم الانقطاع والملل؛ لأن طريق العلم طويل ممتلئ بالمخاطر، لذا هو نوع من الجهاد.

ـ ضبط منهج الاستدلال والاستنباط: وذلك بضبط مصادر الشريعة الإسلامية والتعرف على مناهج الأئمة في الاستنباط والاستدلال تأصيلا وتفريعا[27]؛ لأن معرفة هذه المناهج وإدراكها تنقص موارد التّعصّب والضّلال.

ـ **تصفية الأحاديث الضعيفة والموضوعة من المدوّنات والكتب الإسلامية**: فربّما يظنها الطالب من الأحاديث الصحيحة التي يحتج بها، فيتعصّب لها ولمدلولها، فيقع في المحظور وهو لا يدري.

خاتمة: من خلال هذه الدراسة اتضح مايلي:

ـ التّعصّب نقيض للوسطية، وحكمه الشرعي عدم الجواز؛ فلا يجوز لأحدٍ أن يرجِّح قولاً على قولٍ بلا دليل.

ـ من أبرز صفات المتعصّب التصلّب والجمود والعنف والجدال.

ـ كلّ المذاهب الفقهية تحتوي على أدلة راجحة ومرجوحة، وهذا لا ينقص من قيمتها ومكانة أربابها.

ـ الحق في المسائل الاجتهادية يكون مع واحد، وليس كل مجتهد مصيب والخطأ معفو عنه.

ـ من العوائق والتحديات التي تصادم طالب العلوم الإسلامية التعصّب المذهبي.

ـ يؤثر التّعصّب المذهبي على طالب العلوم الإسلامية من حيث التحصيل العلمي والجانب الدعوي والعمل البحثي.

ـ من أسباب التعصب المذهبي عدم تدرج طالب العلوم الإسلامية في تحصيل العلم وسوء التلقي.

ـ تقديس التراث الفقهي شكل من أشكال التّعصّب المذهبي.

ـ ترتكز التدابير الوقائية على جانبين: الجانب العلمي والجانب التربوي وكلاهما لهما دور في التحصيل العلمي والمسار العملي والدعوي.

المقترحات:

ـ أقترح موضوعا للبحث: نصرة المذهب بين التقديس والتعصب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

قائمة المصادر والمراجع

1- محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي (711هـ)،لسان العرب، مادة عصب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

2- محمد رواس قلعه جي ـ حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، ط2، 1988/1408م، نهج البلاغة، خطب علي رضي الله عنه.

3- أحمد عزو عناية، الرخص الفقهية في ضوء الكتاب والسنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

4- محمود شلتوت (1963م)، محمد علي السايس (1976م)، مقارنة المذاهب في الفقه، دار المعارف، مصر، 1986م.

5- محمد الغزالي (1416هـ)، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق.

6- ابن تيمية (728هـ)، مجموع الفتاوى،تح:عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ.

7- صَدرُ الدين أبو الحسن عليُّ بن علاءِ الدين الدمشقي الصالحيَّ الحنفي، ابن أبي العز (792هـ)، شرح العقيدة الطاحوية، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط4، 1391هـ.

8- سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب (1233هـ)، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، المملكة، د.ط، د.ت.

9- أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر (463هـ)، جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن القيم الجوزي، الدمام، المملكة العربية السعودية، ط1، 1414هـ.

10- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الملقب بـبدر الدين الشوكاني (1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1414 هـ.

11- ابن القيم الجوزية (751هـ)، إعلام الموقعين، تح: أبو عبيدة مشهور، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1423هـ.

12- رسالة الكرخي في الأصول مطبوع مع تأسيس النظر للدبوسي، أبو الحسن الكرخي (340هـ)، عبيد الله عمر بن عيسى الدبوسي أبو زيد (430هـ)، تح: مصطفى محمد القباني الدمشقي، دار ابن زيدون، مكتبة الكليات الأزهرية.
13- عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، الفكر الأصولي دراسة تحليلية نقدية، دار الشروق، السعودية، ط1، 1403هـ.
14- أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: ابن تاويت الطنجي، محمد بن شريفة وآخرون، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1.
15- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح: هشام سمير البخاري، علم الكتب، 1423هـ.
16- خالد بن محمد بن وصل المغامسي، الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، إدارة الدراسات والبحوث بمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، المملكة، ط2، 1426هـ.
17- أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد (241هـ)، تح: شعيب الأرناؤوط ـ عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ.
18- أبو القاسم الطبراني (360هـ)، المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد الله المجيد السلفي، دار النشر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2.
19- يوسف القرضاوي (1444هـ)، الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1414هـ.
20- أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي (676هـ)، التبيان في آداب حملة القراء، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط1، 1403هـ.
21- أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد بن جعفر الصَّيْمَري (436هـ)، أبو حنيفة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1398هـ.
22- أبو بكر الباقلاّني (403هـ)، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تح: أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ.
23- تقي الدين السّبكي (785هـ)، الإبهاج في شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1404هـ.
24- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشّاطبي (1388هـ)، الاعتصام، تح: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية ط 1، 1412هـ.
25- أبو حامد الغزالي (505هـ)، المستصفى، تح: محمح عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1413هـ.

الهوامش:

[1]- محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الأفريقي (711هـ)،لسان العرب، مادة عصب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 206/1.

[2]- ابن منظور، لسان العرب، المصدر نفسه، ص295.

[3]- محمد رواس قلعجه جي ـ حامد صادق قنيبي، معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، ط2، 1408/1988م، ص136.

[4]- نهج البلاغة، خطب علي رضي الله عنه،150/2.

[5]- أحمد عزو عناية، الرخص الفقهية في ضوء الكتاب والسنة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 79؛ محمود شلتوت (1963م)، محمد علي السايس (1976م)، مقارنة المذاهب في الفقه، دار المعارف، مصر، 1986م، ص3 وما بعدها.

[6]- محمد الغزالي (1416هـ)، دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، دار الشروق، ص117.

[7]- ابن تيمية (728هـ)، مجموع الفتاوى، تح: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، 1416هـ، 20213/.

[8]- صَدرُ الدين أبو الحسن عليُّ بن علاءِ الدين الدمشقي الصالحيَّ الحنفي، ابن أبي العز(792هـ)، شرح العقيدة الطاحوية، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط4، 1391هـ، ص331.
وانظر: سليمان بن عبد الله بن عبد الوهاب(1233هـ)، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، المملكة، د.ط، د.ت، ص 484.

[9]- أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري المعروف بابن عبد البر(463هـ)، جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن القيم الجوزي، الدمام، المملكة، ط1، 1414هـ، 913/1.

[10]- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، مصدر سابق،291/20.

[11]- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، الملقب ببدر الدين الشوكاني (1250هـ)، فتح القدير، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط1، 1414 هـ، 209/1.

[12]- ابن القيم الجوزية(751هـ)، إعلام الموقعين، تح: أبو عبيدة مشهور، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية ،ط1، 1423هـ،6 /206 .

[13]- رسالة الكرخي في الأصول مطبوع مع تأسيس النظر للدبوسي، أبو الحسن الكرخي (340هـ)، عبيد الله عمر بن عيسى الدبوسي أبو زيد (430هـ)، تح: مصطفى محمد القباني الدمشقي، دار ابن زيدون، مكتبة الكليات الأزهرية، ص116؛ عبد الوهاب إبراهيم أبو سليمان، الفكر الأصولي دراسة تحليلية نقدية، دار الشروق، السعودية، ط1، 1403هـ، ص122.

[14]- أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (544هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تح: ابن تاويت الطنجي، محمد بن شريفة وآخرون، مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ط1، 59/1.

[15]- أبو عمر يوسف بن عبد البر(463هـ)، جامع بيان العلم وفضله، تح: أبو الأشبال الزهيري، مصدر سابق، 134/2.

[16]- محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي (671هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تح: هشام سمير البخاري، علم الكتب، النشر 1423هـ، 332/10.

[17]- خالد بن محمد بن وصل المغامسي، الحوار آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، إدارة الدراسات والبحوث بمركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني، الرياض، المملكة، ط2، 1426هـ، ص49.

[18]- أحمد بن حنبل مسند الإمام أحمد (241هـ)، تح: شعيب الأرناؤوط- عادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ، 391/30، دون رقم.

[19]- أبو القاسم الطبراني(360هـ)، المعجم الكبير، تح: حمدي بن عبد الله المجيد السلفي، دار النشر، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط2، رقم الحديث:7715، 170/8.

[20]- يوسف القرضاوي(1444هـ)، الخصائص العلمة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط8، 1414هـ، ص32.

[21]- أبو زكريا يحيى بن شرف الحزامي النووي(676هـ)، التبيان في آداب حملة القرآن، الوكالة العامة للتوزيع، دمشق، ط1، 1403هـ، ص13.

[22]- أبو عبد الله الحسين بن علي بن محمد بن جعفر الصَّيْمَري (436هـ)، أبو حنيفة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1398هـ، ص74.

[23]- أبو بكر الباقلاّني (403هـ)، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، تح: أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ط1، 1407هـ، ص501.

[24]- ابن تيمية، مجموع الفتاوي، مصدر سابق ،28 /207.

[25]- تقي الدين السبكي (785هـ)، الإبهاج في شرح المنهاج، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،1404هـ، 22/1.

[26]- أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي(1388هـ)، الاعتصام، تح: سليم بن عيد الهلالي، دار ابن عفان، السعودية ط 1، 1412هـ، 507/1.

[27]- أبو حامد الغزالي (505هـ)، المستصفى، تح: محمح عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1،1413هـ، ص 180.